مجلة اللسانيات التطبيقية ISS N : 2588-1566 الصفحات: 209 -242
المجلد: 06 العدد: 01 (عدد خاص) السنة: 2022

ظاهرة التصنع البديعي في أدب العصر المملوكي دراسة و تحليل في كتاب

(التصنع و روح العصر المملوكي) لأحمد فوزي الهيب

The phenomenon of ingenuity in the literature of the Mamluk era: study and analysis in the book (Industrialization and the Spirit of the Mamluk Era) by Ahmed Fawzi Al-Hayeb

د.أمال أورابح*

جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر02 – الجزائر

amelourabah@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/12/16	تاريخ القبول: 2021/12/22

الملخص:

عُرف أدب العصر المملوكي بتفشي " ظاهرة التصّنع البديعي" والغلوّ فيه، وقد لقي هذا الأخير اهتماما من قبل الدارسين، لكن اهتمامهم به و حكمهم عليه ، لم يكن منصفا بسبب عدم التحري عن أسباب لجوء الشعراء إلى اتّخاذها غاية للكسب. بل، الاكتفاء بما هو سطحي. مع العلم أن الظاهرة تصدى لها كثير من النقاد قديما وحديثا، باعتبارها مسيئة للذوق الفنّي والجمال الأدبي. ويأتي العلامة و الباحث المعاصر" أحمد فوزي الهيب"، ويعيد النظر فيما أنتج من أدب شعرا ونثرا في (كتابه (التصنع وروح العصر) ، مسلطا الضوء على هذه الظاهرة، متحريا الأسباب، ومستكشفا الأبعاد . داعيا بعمله هذا إلى ضرورة إنصاف هذا العصر وإعطائه حقّه جهة الأحكام المتّخذة حوله جورا دون الأخذ بعين الاعتبار العصر والروح السائدة فيه، إذ ما أُنتج ليس سوى استجابة لروح العصر ومتطلباته.

* المؤلف المرسل: أمال أورابح.

الكلمات المفتاحية: أدب العصر المملوكي – ظاهرة التصنع البديعي – كتاب التصّنع – دراسة وتحليل

Abstract :
The literature of the Mamluk era was known for the spread of the "innovative phenomenon" and exaggeration in it, and the latter received attention from scholars, but their interest in it and their judgment on it was not fair due to the lack of investigation of the reasons for the poets resorting to taking it as a goal to earn. Rather, it is sufficient for what is superficial. Knowing that the phenomenon was addressed by many critics, past and present, as offensive to artistic taste and literary beauty. The contemporary scholar and scholar "Ahmed Fawzi Al-Hayeb" comes and reconsiders what he produced of poetry and prose literature in (his book (Artificiality and the Spirit of the Age), shedding light on this phenomenon, investigating the causes, and exploring the dimensions. He calls for his work on the necessity of fairness of this age and giving it the right The side of the unjust rulings taken around it without taking into consideration the era and the prevailing spirit in it, as what was produced is only a response to the spirit of the age and the requirements of the times.

*** Keywords:**The literature of the Mamluk era - the phenomenon of ingenuity - the book of artificiality - study and analysis**.**

مقدمة:

غني عن الذكر والتعريف بأنّ لكل عصر طابعه ومميزاته الفكرية، وكذا خصائص الكتابة فيه والأدب المعبِّر عنه، حيث يتّجه الفكر الفنّي عامة والكتابة خاصة اتّجاها معينا أوجبته متطلبات العصر ومميزاته وحاجياته كذلك. فالأدب فن جميل ، وجماله يكمن في لغته. غير أّنه يتأثر أيّما تأثر بأجواء العصر المختلفة سياسيا، اجتماعيا، ثقافيا، وفكريا. وهو ما ينعكس على أساليب الكتابة، فيطرح قضايا وأفكارا مرتبطة بذلك العصر ارتباطا منقطع النظير.

وحيث إنّ جمال الأدب سواء الشعر منه أم النثر مرهون بما يوظفه الأدباء والشعراء من ألفاظٍ ومعانٍ تزيده جمالا ورونقا أسلوبيا. خصوصا إذا عرف الأديب والشاعر كيف يوظفهما ويعبر بهما عن المعاني المقصودة بوضوح تام مع رعاية مطابقتهما للحال والمقام. فإنّ سر جماله قائم على مدى حسن انتقاء لألفاظه و معانيه. و أحسن الأدب ما كان فيه توظيف اللفظ والمعنى توظيفا عفويا غير متكلف للتعبير عن الأغراض المقصودة، لأنّ النقاد يبنون أحكامهم النقدية على هذه الثنائية ومدى توظيفها توظيفا حسنا من قبل الشعراء والأدباء.

وقد يُنصف الأدباء والشعراء من قبل الدارسين والنقاد من خلال ما أنتجوه من شعر وأدب ، أو يخضعون لأحكام جائرة تستبعد مقتضيات الكتابة ومؤثراتها النفسية والاجتماعية، ممّا يجعل الصورة العامة عن الأدب المُنتج محاطة بالإبهام أو سوء للفهم تبعده عن مقاييس الجمال والذوق الفني.

من هذا المنطلق ارتأينا في مقالنا هذا معالجة قضية التصّنع البديعي في العصر المملوكي من خلال ما أنتجه الباحث " أحمد فوزي الهيب"، في كتابه (التصّنع وروح العصر) ،منطلقين من الإشكالية الآتية:

- **ما موقف " أحمد فوزي الهيب" اتّجاه ظاهرة التصّنع البديعي والغلوّ فيه ؟**

تلتها التساؤلات الآتية:

- ما هي دوافع التأليف ؟ وما الهدف من ورائه؟

هادفين إلى استقراء فكر الباحث المحقق "أحمد فوزي الهيب" واستكشاف أبعاد " قضية التصّنع البديعي "المنتشرة في العصر المملوكي، هذا الأخيرة التي تعد من صميم قضايا البلاغة والنقد والأدب قديما وحديثا.

حظي الأدب على مرّ العصور باهتمام الباحثين والدارسين من مختلف جوانبه، والجانب الأكثر اهتماما هي طرائق إيصال المعنى إلى المتلقي. هذه الأخيرة التي تعد محور اهتمام الأدباء والنقاد والبلاغيين.

وصناعة البديع، والفصاحة، والبلاغة إنما هي من جهة الاستدلال بالألفاظ على معانيها، فهي راجعة إلى كيفية العبارة والأساليب في البيان. ومن ثمة، فإنّ لصناعة البديع مقتضيات منها المقامات والأحوال.

وقبل عرضنا لتفاصيل الظاهرة محل الدراسة، يجدر بنا أولا التعريف بالعلامة " أحمد فوزي الهيب مع الإشارة إلى المضمون العام لكتابه.

1- نبذة مختصرة عن المؤلِف وكتابه:

«أحمد فوزي الهيب » - رحمه الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جنانه- شاعر وأديب ومدرس سوري، ابن مدينة حلب، وجد لنفسه مكانة في ميادين الفكر وحقول الأدب، فهو الرجل الشاعر الحساس الذي يعشق السلام والهدوء والسكنية، .[1]له مجموعة من المؤلفات المطبوعة والمتمثلة في:

- الأدب وروح العصر،1984
- ذات السلاسل، الكويت،1984
- الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986
- ديوان ابن الوردي، دار القلم، الكويت،1987
- العروض لابن جني، الكويت،1987
- الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب، الكويت،1987
- الجانب العروضي عند حازم القرطاجني، دار القلم الكويت،1988
- الحسن الصريح للصفدي،دار سعد الدين، دمشق،2003

- إيقاع الشعر العربي، دراسة في فلسفة العروض، دار القلم العربي، حلب، 2004.[2]

بالإضافة إلى كتابه (التصنع وروح العصر المملوكي،2004) ، الذي هو محل الدراسة والتحليل في هذا المقال.

ويتّضح لنا من مؤلفاته أنّ ثقافته العلمية والفكرية تجمع بين اللغة والأدب ، وهو ما سيعيننا على معرفة أسباب تأليفه لكتاب (التصنع وروح العصر المملوكي)، حيث تُظهر مؤلفاته مدى اهتمامه بالأدب عامة والشعر خاصة، وكذا اهتمامه بالأدب في خضم العصر الذي أنتج فيه.

2- آراء الدارسين حول أدب العصر المملوكي:

عرف الأدب عامة والشعر خاصة على مر العصور نوعا من الدراسة والتمحيص والنقد، وقد حظي العصر المملوكي هو الآخر بهذا النوع من الدراسة، حيث تشير الدراسات والمؤلفات التي اعتنت بالبحث والكتابة حول ما يتعلق بهذا العصر، أنه- العصر المملوكي- قد أُعتبر من أسوء العصور حظا وأقلها عناية من حيث الباحثون فيه، إذ تتّجه نظرة الباحث " علي أبو زيد " إلى اعتبار ما أنتج فيه من أدب لا يزال القسط الأوفر ممّا خلفه هذا العصر دفينا. معتبرا أنّ هذا العصر لم يكن أقلّ عطاء من غيره، فقد تعددت نتاجاته وتنوعت حتى شملت فنون المعرفة كلها من أدب وشعر، وفلسفة وفقه وتاريخ ... وغيرها من العلوم. وهو الأمر الذي جعله يخصّص كتابه (**البديعيات في الأدب العربي: نشأتها – تطورها – أثرها**)، لدراسة ظاهرة البديعيات، هذه الأخيرة التي هي عبارة عن مجموعة من القصائد، ظهرت في القرن الثامن الهجري واستمرت حتى القرن الرابع عشر، غرضها المديح النبوي، وغايتها جمع أنواع البديع ضمن أبياتها"[3]

وفي المقابل يرى" شفيق عبد الرزاق" أنّ أدب العصر المملوكي قد شابه الكثير من الغموض والإبهام، والسبب في ذلك كثرة الأحكام النقدية من حوله دون تروٍ وعمق النظر فيما أنتج فيه. معتبرا موكب الشعر فيه غير متوقفٍ. بل ظلت قريحة الشعراء مستمرة رغم الظروف التي آل إليها الأدب، حيث إنّ الإبداع الشعري عنده عمل تبعثه في وجدان الشاعر بواعث كثيرة، من بينها ما يحيط به من ظروف اجتماعية وأحوال الحياة عامة. ومنه، فإنّ الشعر وسائر الفنون عمل اجتماعي تمتزج فيه المشاعر الذاتية بمشاعر الجماعة.[4]

و رغم الآراء التي قيلت حوله، إلا أننا نجد المهتمين به من أمثال" محمد زغلول سلام" في كتابه (الأدب في العصر المملوكي)، الذي حاول إعطاء صورة عامة عن العصر في بيئات مختلفة سياسية ، اجتماعية ، ثقافية، دينية لها تأثير على هذا النوع من الأدب. [5]

ولما كان الأدب في العصر المملوكي قد شهد خصائص معينة في الكتابة والمتمثلة في:

- التأثر الكبير بالواقع، فانعكس ذلك على كتابات الأدباء والشعراء من خلال القضايا التي تناولوها
- الصنعة والتكلف في الشعر لأجل تحقيق أغراضهم
- الركاكة والتقليد والتخلي عن الشعر العمودي
- اشتهار البعض بالبلاغة والبديع وكثرة التشبيهات والصور الفنيّة
- الاستعمال المفرط للتورية والجناس والطباق والمقابلة والسجع وحسن التعليل
- اشتهار الكثير من أشعارهم بالبديعية في مدح النبي عليه الصلاة والسلام

فإنّ الكُتّاب والشعراء وكذا الأدباء والنقاد يتأثرون ببيئتهم الاجتماعية والثقافية والفكرية ويؤثرون في الغير، من خلال مؤلفاتهم وما يطرحون فيها من

أفكار وقضايا جديرة بالاهتمام والدراسة. فكتاب « **التصنع وروح العصر المملوكي**» كتاب يطرح قضية جد مهمة شغلت عصرا بكامله وهي قضية خمود النشاط الإبداعي فيه، بعد كارثة الاجتياح المغولي، وانقطاع لغة الكتابة عن لغة الحياة الجارية ومشكلاتها وقضاياها. ورجوع الكاتب والشاعر فيه الاستقاء من النماذج الأدبية السابقة، وإعادة صوغها بما يتّفق مع طوابع العصر التي انتهت إلى الكلف بالصناعة تكلفا شديدا .[6]

وعليه،لا يمكن لأحد أن ينكر بأنّ جوانب الذوق الأدبي العربي تظهر صورته الفنيّة الجماليّة من خلال ثالث فنّ من فنون البلاغة وعلومها وهي فنّ البديع. ولعلّ المؤلف " أحمد فوزي الهيب " كان يروم من خلال كتابه هذا إلى إبراز الدلالات الجمالية والنفسية للعصر المملوكي، إذ كان يرمي من خلاله إلى الوقوف على جملة الأسباب الداعية إلى ظاهرة التصنع البديعي ومحاولة الإجابة عن جملة من التساؤلات التي أحاطت بهذا العصر في الأدب عامة وفي الشعر خاصة، بالتوضيح والتعليل .وأهم تلك التساؤلات ما يلي:

- ما هي أسباب كثرة أنواع البديع؟
- لماذا بلغ البديع هذا الحد من التعقيد والتكلف؟ وما أسباب ذلك؟

والجميل في الأمر، أن كتاب (التصّنع وروح العصر المملوكي) قد حظي بالدراسة من قبل " عبد الكريم الأشتر" ، الذي بيّن في دراسته له، وجود أهداف كان يسعى إليها " أحمد فوزي الهيب" – رحمه الله- والتي يمكن حصرها في النقاط الآتية:

- هو دراسة ما آل إليه التصّنع البديعي في الشعر بالعصر المملوكي من تكلف وتعقيد وكثرة وتنوع وإلحاح، مع تفسير مظاهره وبيان قيّمه الأدبيّة والفنيّة

- بيان دور النقد الأدبي في الغلوّ، وخاصة الفهم الخاطئ لمقولة الجاحظ الشهيرة عن المعاني، الأمر الذي أدى بالشعراء والأدباء والنقاد إلى صرف النظر عن العناية بالمضمون إلى العناية بالشكل
- شرح وتفسير ظاهرة التصّنع في العصر المملوكي مع تعليل وإيجاد العذر لأصحابه، كونه أصبح سلوكا فطريا عندهم لا يفارقهم.[7]

من منطلق هذه الأهداف يرى" عبد الكريم الأشتر، أنّ مؤلفه " وضع بين يدي القراء عامة وقراء العربية خاصة مرجعا هامة لظاهرة التصّنع في الشعر العربي مؤرخا لها، ومحققا في شعر شاعرين كبيرين من شعراء المرحلة المملوكية ، مع تقويمها تقويما نقديا سليما يدعمه ذوق صافٍ"[8]

إذ ، بناء على هذه الأهداف المسطّرة، جاء الكتاب مكونا من 129 صفحة، ومجزأ إلى ثلاثة أجزاء هي:

- المدخل: عبارة عن إطار نظري مفاهيمي وتأسيسي، تناول فيه المؤلف مسيرة الصنعة البديعية من الجاهلية إلى العصر المملوكي.

- الفصل الأول والثاني عبارة عن دراسة تطبيقية، خُصّص الفصل الأول للحديث عن التصّنع في ديوان ابن الوردي، بينما خُصّص الثاني للحديث عن التصّنع في ديوان صفي الدين الحليّ.

وبما أنّ التصّنع مرتبط بالألفاظ والمعاني أي بالبديع، فإنّنا سنشير بداية إلى مسيرة هذا العلم إجمالا عبر عصور مختلفة ، لنتبين إثرها حقيقة هذه الظاهرة ، ويتسنى لنا فيما بعد تحليل آراء الهيب حولها.

3- مصطلح البديع عبر التاريخ:

يدور الجذر اللغوي (بدع) في المعاجم اللغوية العربية حول كل ما هو جديد وحديث.

فقد جاء في لسان العرب لابن منظور في باب الباء ، مادة (**بدع**) قوله:" بدع: بدع الشيء ، يبدعه بدعًا وابتدعه: أنشأه وبدأه.... والبديعُ والبِدعُ: الشيء الذي يكون أولا.....

والبديعُ: المُحدثُ العجيبُ. والبديعُ المُبدعُ. وأبدعتُ الشيء: اخترعته لا على مثال"[9]

والبديع في بداياته الأولى موجود في كلام العرب شعره ونثره منذ العصر الجاهلي، حيث تميّز بالعفوية والفطرة. فوجوده كان فنيّا دون تكلف، وحضوره عُدّ حضورا قويا في أشعار العرب دون الاصطلاح عليه ، بل كان التفنن في أشكاله المختلفة يرد على السجية، أمثال امرئ القيس والنابغة الجعدي وعمرو بن كلثوم وغيرهم كثير.

ثمّ أخذ مصطلح البديع يأخذ منحى أخر وأبعادا واتجاهات مختلفة عبر العصور، أسهم في بلورة مفهومه كل من البلاغيين والأدباء والنقاد. إذ تميز وجوده بمروره عبر مراحل مختلفة جعلته ينمو ويتطور إلى أن يصير علما قائما بذاته، ثم يموت ويجمد. متأثرا في مراحل نشأته تلك بأجواء الحياة العباسية، هذه الأخيرة التي وجهت الأدب والفكر توجها جديدا في مختلف النواحي من حيث مواضيع الأدب والأغراض وطرائق التعبير، وشجعت الشعراء والأدباء على روح التباري والمنافسة والإبداع.[10]

وإن كان من الصعب علينا الإحاطة بكل هذه المراحل مرحلة بمرحلة والتفصيل فيها. فإنّنا سنشير إلى ذلك إشارة سريعة متتبعين سيرورة المصطلح تاريخيا.

بالعودة إلى المصطلح في نشأته يمكن القول بأن أول إشارة في استعماله كمصطلح في تاريخ البلاغة العربية، نجدها لدى الجاحظ (ت255ه) في كتابه (البيان والتبيين)، وإن لم يكن قاصدا التأليف في البديع ووضع القواعد والحدود له، وإنما كان همه الإتيان بنماذج وأمثال من كلام العرب في جودته أو حسنه وقبحه، وهذه النماذج قد اعتبرها شواهدا وحججا في حسن البيّان، حين عمد إلى توضيح معنى البيان ومواطنه. مؤكدا أنّ " البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان."[11]

وبعد إشارة الجاحظ هذه للمصطلح، يعتبر الدارسون أن أول من قام بمحاولة علمية جادة اتجاه البديع هو الشاعر العباسي " ابن المعتز" (ت296ه)، حين ألّف كتابا أطلق عليه اسم (البديع)، كشف به عن لون جديد من ألوان البلاغة، في البيان والبديع، وفي الشعر والنثر، جمع من خلاله فنون البلاغة مؤكدا فضله في السبق قائلا" ما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد"[12]، وغايته في التأليف هي تعريف النّاس بأنّ المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من ألوان البديع، بل هو قديم في لغة العرب شعره ونثره.[13] فوجود البديع في زمانه لم يكن أمرا مُستحدثا، وإنّما كثُر في شعر المولدين والمحدثين حتى اشتهر وعُرف عندهم. وألوان البديع عند ابن المعتز تشمل خمسة أبواب هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد العجز على الصدر والمذهب الكلامي.[14] . وحصره البديع في هذه الأبواب الخمسة،

و حديثه عن محاسن الكلام لم يجعله يغلق باب الاجتهاد، بل جعله مفتوحا لكل من أراد الزيادة أو النقصان أو خلاف ما ذكره في كتابه.

ومنه، أخذ المصطلح بعده يتطور في العصر العباسي على يد مجموعة من الشعراء ، الذين تنبهوا إلى ما في شعر القدماء من طرائق المحسنات البديعية، فتناولوا البديع ما بين مقتصد ومفرط في استعماله. إذ الثابت أن العصر العباسي قد شهد مرحلة خصبة ومزدهرة من تاريخ البلاغة العربية، وعرف إسرافا كبيرا في استعمال الصور البديعية بحكم الحياة العباسية الداعية إلى التنميق في الألفاظ. وفي استعماله تباين الشعراء في مستوى و درجة الاستعمال، فظهرت إثر ذلك أربع مدارس معروفة باستعمالها المُفرط للبديع، وهي:[15]

- مدرسة بشار

- مدرسة مسلم بن الوليد

- مدرسة أبي تمام

- مدرسة البحتري

كما انكبّ البلاغيون أيضا على توسعة دائرة البديع، على رأسهم قدامة بن جعفر (ت337ه) في (نقد الشعر)[16]، ثم أبو هلال العسكري الذي ذكر في كتابه الصناعتين خمسة وثلاثين فصلا لفنون البديع ،[17]وزاد عليها ابن رشيق القيرواني في العُمدة في حديثه عن باب البلاغة وفنونها.[18] وبقيت المنافسة قائمة في الزيادة على ما ذكره ابن المعتز من ألوان البديع وفنونه وتضخيم أرقامه، إلى أن وصل في القرن السابع هجري إلى ضبط مفهومه ووضع قواعد له على يد

السكّاكي (ت626ه) بعدما جمع ما كان متناثرا من ملاحظات بلاغية، فحصر فروعها وأقسامها. [19]

أي إنّ حياة البديع قد انشطرت إلى قسمين:

الأولى حياته الطبيعية النابضة التي استمرت عند" منير سلطان" سبعة قرون، والثانية هي حياته السطحية العقيمة التي أدت به إلى الجمود.[20]وهذا أمر طبيعي وبديهي، إذا ما قسناه بمميزات كل عصر وخصوصية قضايا الفكر السائد لكل واحد منه. إذ تباينت المفاهيم المتعلقة بالمصطلح دلاليا في تراثنا النقدي والبلاغي، بين الضيق والاتّساع حينا، والتعميم والتخصيص حينا أخر، ما أسفر عن ذلك وجود مرحلتين من عمر البديع: الأولى هي النشأة والتطور، وقد شهد فيها المصطلح وجود استخدامه بمعنى" الجديد" في بلاغة الشعر ، خصوصا الشعراء العباسيون. والثانية: هي مرحلة الضبط و التصنيف للمصطلح.[21]

وإذا ما تأملنا جيدا المرحلتين السابقتين وما ذكرناه بخصوص نشأته وتطوره، لوجدناه بشيء أكثر تفصيلا قد مرّ بعدة مراحل مختلفة جعلته في كل مرحلة متميزا، وإن كانت هذه الأخرى محتواة ضمن المرحلتين السابقة إلا أنّنا سنوجزها فيما يلي:

– **الأولى**: فنية، أساسها الذوق الفنّي، والحسّ الصادق، والبديع فيه كان ممارسة فعلية فطرية دون تكلف. أي أن الخصائص الفنية للأدب كانت معروفة ممارسة .

– **الثانية**: هي النشأة والتكون الفعلي للمصطلح، حيث تمّ التصريح به على يد الجاحظ، إلاّ أنه امتزج بمصطلحات أخرى، وهي البلاغة والفصاحة والبيان، فلم يستقل بعد بمعناه.

– **الثالثة** وهي: التأسيس: أين بدأت معالمه كعلم تتّضح على يد مؤسسه ابن المعتز، لكنّه رغم ذلك بقي ممزوجا بالبيان والفصاحة والبلاغة.

– **الرابعة:** مرحلة النمو والازدهار: فيها عرف أمر البديع منافسة شديدة بين الأدباء والبلاغيين في اكتشاف محسنات جديدة واستحداثها. حيث أضحى أمره العناء به مقتصرا على المهارة في الإبداع والتطوير في المصطلح. وهذه المرحلة أدت إلى إدراك تام لحدود البيان والبديع.

– **الخامسة:** تكمن في ضبط وتصنيف المصطلح على يد السكّاكي في كتابه (مفتاح العلوم)، أين استفاد من سابقيه ، وعمد إلى فصل علوم البلاغة ، وجعلها ثلاثة وهي: المعاني والبيان والبديع، فبسّط المفاهيم وشرحها، و أقرّ بأن البديع من علوم البلاغة، وأنه يرد بوجوه مخصوصة في تحسين الكلام وفصاحته، ومن ثمة قسّمه إلى قسمين: محسنات لفظية وأخرى معنوية ، موضحا كل محسن والباب الذي يندرج فيه .[22]

– **السادسة**: مرحلة التلخيص واستقرار المفهوم: كان ذلك في زمن القزويني (739ه) في كتابه (الإيضاح في علوم البلاغة)، إذ لم يضف شيئا، وإنما كانت عنايته بتوضيح وتلخيص لما جاء ذكره عند السكاكي، موضحا أنّ البديع واحد من علوم البلاغة الثلاث وأنّه " علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة. وهذه الوجوه ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ[23]

وبعد هذه المراحل من عمر البديع، نجد مرحلة أخرى وهي **الجمود**، وهذا الجمود قد أكسب العصر نفسا جديدا أدى بالشعراء نحو التقليد. والمغالاة في التصّنع، فظهر ما يُعرف بالبديعيات. وأضحى الشعر مقترنا بالإبداع عن طريق التصّنع البديعي والمغالاة إما طمعا في التكسب، أو إعجابا أو فقرا للمعاني.

4 - مفهوم الصّناعة والتصّنع البديعي:

مصطلح الصناعة البديعية مكون من شقين: الصناعة + البديعية، أي: **صناعة البديع**. وعليه سنتعرف على مفهوم الصناعة أولا، ثم مفهوم التصّنع ثانيا لنصل إلى معرفة ماهية صناعة البديع والتصّنع فيه.

أ- الصّناعة : الصّناعة لفظ ذو معنيين، أحدهما لغوي والثاني اصطلاحي.
أما **مفهومها اللغوي**: فهي مصدر صنع يصنع صُنعا وصنيعا، وارتبط مفهومها في المعاجم اللغوية العربية بالحِرفة. حيث جاء في معجم الصحاح للجوهري (حرف الصاد) قوله:" والصّناعة: حرفة الصانع، وعملهُ: الصّنعةُ"[24]، والمعنى نفسه مذكور عند الفيومي في(المصباح المنير) في كتاب (الصاد) قائلا:" صنعتُهُ: (أصنعُهُ) (صُنعًا) والاسم (الصناعة)، والفاعل صانع، والجمعُ صُّناع، والصّنعةُ عمل الصانع"[25]

في حين يعود اللفظ من الناحية **الاصطلاحية** إلى صناعة الكلام شعره ونثره والقُدرة على صناعته ضمن الجودة الفنية المطلوبة، حيث تقرر عند الأدباء والبلاغيين وحتى النقاد أنّ مبدأ التأليف في الكلام إنما هو صناعة، وأنّ هذه الصناعة تقتضي البلاغة والبيان والفصاحة، فكثُر في مؤلفاتهم

الاصطلاح على طرائق صناعة الشعر بقولهم " **صناعة الشعر**" قاصدين به فن الكلام أو فن القول.

ومن بين العلماء الذين ظهر عليهم المصطلح في مؤلفاتهم، نذكر الجاحظ الذي اهتم بصناعة الكلام وطرائق القول وتصوير المعنى والبيان عن المقاصد، مؤكدا بأنّ الشعر صناعة تصويرية قائلا:" .... وإنّما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير" [26].وهو بقوله هذا يعطي للشعر معنى التخييل الذي ينسج وفق صناعة مُحبكة لتؤدي الغرض المطلوب. ونرى ابن طباطبا العلوي (ت322ه) في حديثه عن صناعة الشعر في كتابه (نقد الشعر) يضع القواعد الخاصة بالشعر ضمن أسس نقدية علمية لنظمه، معتبرا الشاعر كالنسّاج الحاذق الذي يزين وشيه بأحسن زينة ليظهر بها مدى إبداعه ومهارته. [27]

ومقابل ذلك يتحدث العسكري (ت395ه) في كتابه الصناعتين عمّا يوجب صناعة الكلام شعرا ونثرا ضمن مقاييس سليمة تضمن له ذلك في إطار آليات الصناعة وحسن التأليف الذي يزيد المعنى وضوحا وشرحا أكثر فيجعله فصيحا. [28]

أما ابن سنان الخفاجي (ت466ه) ، فنجده يؤكد مدى ارتباط الأدب بالصناعة الفنيّة، معتبرا إياه صناعة كغيرها من الصناعات الأخرى، هذه الأخيرة بحاجة إلى خمسة أشياء تجعل الصناعة مُكتملة وهي: **الموضوع – الصانع –الصورة والآلة والغرض**. مؤكدا أنّ الصانع المؤلف هو الذي يؤلف الكلام بعضه بعضا باعتماد الصورة والآلة للتعبير عن الموضوع المراد والغرض المرجو بشكل احترافي فني.

ومن هذه الأقوال المذكورة يتّضح بأن الاهتمام بالأدب عند أسلافنا من العلماء شعره ونثره جاء مقترنا بالمهارة والاحتراف في أفانين القول وأضربه، كون صناعة الشعر تتجلى في مختلف وسائل البيان التي تجعل الكلام لا يخرج عن نطاق البلاغة والفصاحة التي تمّ تحديدها في مؤلفاتهم. وهذا يؤكد المعنى اللغوي للصناعة، وهي الحِرفة . أي: حرفة الصانع.

وبالتالي ، فإنّ صناعة الكلام شعرا ونثرا لا تتأتى لأي كان، وإنّما للمؤلف الذي يحترف في نسج كلامه بطريقة مخصوصة تجعله متميزا.

ب- **التصّنع**: التصّنع من الناحية اللّغوية، مشتق من الفعل تصنّع، يتصنع وتصنعا، و**تصنّع** بمعنى:

" تظاهر بما ليس فيه، والمصنوع: خلاف المطبوع من الشعر وغيره."[29] ،وهو ما جاء أيضا في معجم المعاني الجامع ، بأنّ " التصّنع: من الفعل تصّنع، يتصّنع ، فهو متصّنع، والمفعول مُتصّنع. وأظهر تصّنعا: تكلف ما ليس به. وهو في الآداب: زخرفة الكلام وتنميقه بحيث يخرج عن الطبع والبساطة.وتصّنع الخطيب في كلامه: تكلّف، تقعّر: أسرف في الصياغة اللفظية"[30]

بمعنى أخر ، فإنّ المقصود به، "تكلف حسن السّمت"[31]

هذا عن معناه اللغوي، أما معناه الاصطلاحي، فإنّنا نجد مفهومه لا يختلف عمّا ذُكر في المعاجم اللغوية، إذ معناه الاصطلاحي في التراث النقدي البلاغي لا يخرج عن إطار التكلف نقيض الطبع، إذ مع اكتشاف ابن المعتز للبديع وطرائق التعبير الفنّي في الجدة والطرافة، ظهر مذهب شعري جديد على شعراء العصر العباسي، ممن كانت لهم الشهرة الواسعة في تزيين الكلام والعبارات بأبهى حلة لفظية ومعنوية وصياغة شعرهم بمختلف

الظواهر البلاغية. وكون البديعواحدا من علوم البلاغة الثلاث الذي يُعنىبطرق تحسين الكلام وتزيين الألفاظ والمعاني بألوان بديعية من الجمال اللفظي أو المعنوي . ما يُكسب الكلام شعرا ونثرا ديباجة فنيّة. فإنّ هذا الأخير قد تلقفه العلماء بالدراسة والاهتمام بالنظر إليه في حسن جودته وتحسينه للمعنى.

إلاّ أنّ الأدب عامة والشعر خاصة، قد تمّ النظر إليه من قبل الدارسين من منظارين هما: الطبع والصنعة فيه. حيث اعتبر الطبع عند النقاد العرب ذو علاقة وطيدة بالصناعة. لأن المقدرة البلاغية هي الشغل الشاغل للنقاد. كون صناعة الكلام عندهم شعره ونثره لابد أن تكون في إطار مقاييس بلاغية نقدية سليمة ضمن قواعد الشعر، على نحو ما فعله ابن قتيبة وابن طباطبا في عيار الشعر ،وقدامة بن جعفر وابن رشيق القيرواني في (العمدة في صناعة الشعر ونقده)، الذي خصّص بابا بأكمله للحديث عن الطبع والصنعة .[32]مؤكدين أن صنعة الكلام لها مقاييس وأحكام تضبطها. وأن المغالاة فيها يؤدي إلى التصّنع الذي هو خلاف الطبع. ومن ثمة قُسم الشعر إلى طبقات وفقا لطرائق الصنعة المعتمدة من جهة اللفظ والمعنى. وهذا الاهتمام بالشعر، أثار قضية الطبع والصنعة في مظاهر الحسن والقبح ما أحدث جدلا بين النقاد العرب القدامى، واتّجهوا فيها مذهبين بين مؤيد استحسنها ومعارض لها، وبين معتبر لها جانبا من جوانب الإبداع الفنّي أو عيبا من عيوب الكلام .[33]

5- موقف أمد فوزي الهيب من ظاهرة التصّنع:

إنّ قراءتنا للكتاب جعلتنا نلتمس عدّة آراء ومواقف لصاحبه تنم عن معرفة علمية دقيقة وسعة اطلاع كبير حول الأدب والنقد والبلاغة ، هذه

المواقف المتعددة تعد في نظره سببا رئيسا في الصناعة البديعية والإسراف في التصّنع، ومع أنّنا سنعمد إلى إدراجها مستقلة ومتفرقة منهجيا، إلاّ أنّها تحيل كلّها وهي مجموعة على رأي وموقف واحد إزاء ظاهرة التصّنع ، والتي يمكن حصرها في النقاط الآتية:

أولا- موقفه من ظاهرة التصّنع البديعي وتطورها:

يرى أحمد فوزي الهيب – رحمه الله – بأنّ المتأمل للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وما ورثناه في تراثنا الأدبي بدءً من العصر الجاهلي وصولا إلى العصر المملوكي شعرا ونثرا، ليجد الكثير من ألوان البديع وفنونه التي استمر وجودها قرونا طويلة استمرار مسيرة الأدب العربي. غير أنّ أمر وجوده لم يكن دُفعة واحدة، وإنّما كان مختلفا من عصر إلى عصر بأشكال وألوان وأعداد مختلفة. حيث بدأ بسيطا ثم راح ينمو ويزدهر شيئا فشيئا بالتدريج ، بحكم التعمق في الحضارة والثقافات الأجنبية شأن نمو علم البلاغة الذي كان في بداياته الأولى في شكل ملاحظات بلاغية مبثوثة في الكتب.[34]

وإثر هذه الملاحظات البلاغية هنا وهناك وبالموازاة مع مراحل تطور البلاغة العربية لمعت مجموعة من الأسماء المنتمية إلى مجالات معرفية متنوعة من أمثال: بشر بن المعتمر – الجاحظ – ابن المعتز – قدامى بن جعفر – ابن وهب – الرماني – الباقلاني – القاضي عبد الجبار - - ابن طباطبا– العسكري – ابن رشيق والخفاجي.

وبالمقابل مضى أصحاب البديع يحاولون العمل على إضافة ألوان بديعية أخرى على غرار ما ذكره ابن المعتز في كتابه (البديع)، بعدما ترك الباب مفتوحا لغيره للزيادة فيها أو النقصان. والدليل على ذلك - في نظره- تلك الأرقام المسجّلة حول فنون البديع لدى كل من أبي هلال العسكري وابن رشيق القيرواني.

من هذا المنطلق، ووفق الإطار العام الذي حدّده لنشأة علم البلاغة، فإنّ التصنع البديعي- في رأيه- عبارة عن مسيرة فنيّة بدأت منذ العصر الجاهلي وصولا إلى العصر المملوكي. إذ لم تكن الصّنعة البديعية بعيدة عن الشعر الجاهلي، وإنّما كان وجودها عند الشعراء – آنذاك – متّسمة بالتوازن والاعتدال طبعا لا تكلفا. فالذي طبع الشعراء وقتها هو الاهتمام أكثر بالمضمون لأنه المقدّم والأوّل عندهم، ثم تأتي الصّنعة بعده في الرتبة والاهتمام. أي المضمون أولا والشكل ثانيا. ثم اتّجهت دائرة الاهتمام نحو التغيرّ بسبب طبيعة الحياة ومقتضيات العصر إذ لكل عصر خصوصيته.

وعليه، وحسب رأيه، فإنّ التصّنع في العصر المملوكي قد تجلى في شكلين اثنين:

- **أولهما:** بسيط، لأنه يُعنى بأنواع التصنع الكثيرة مفردة، يأتي بها متناثرة من غير نظام ينظمها، أو مخطط ينسق بينها، نجده ينثر الجناس والطباق والتدبيج وغيرها، ويحشدها هنا وهناك في أبيات القصائد.
- **وثانيهما:** شكل معماري فني كلي منظم، يتبع مخططا دقيقا ، ويُعنى بالمظهر الكلي للعمل،فكأنه حديقة رسم مخططها مهندس قدير، فجعلها مرتبة، قائمة أقسامها وساحاتها على التشابه والتناظر والتكامل، ذات بداية ونظام لا تتعداه ولا تخالفه، بل تخضع له كل جزئياتها خضوعا تاما.:[35]

لذلك ، فهو يرى أنّه من الضروري النظر إلى العصر المملوكي عامة و شعره خاصة بمنظار العصر، حتى يكون الحكم عليه حكما منصفا وعادلا لا جائرا، ويزيل عنه ما أصابه من الجور والظلم من قبل الباحثين.

بل، لابدّ من ردّ ما أصابه إلى تأثره بروح العصر الذي كان يعايشه كون الأدب عامة والشعر خاصة مرآة للمجتمع والعصر.[36]

وحاليا تؤكد الكثير من الدراسات علاقة الأدب بمجتمعه، إذ لا ينفك ينعزل عنه حتى وإن أردنا ذلك، فإنّه يبقى دائما وأبدا يعطي صورة عامة عن المجتمع ومجرياته، ومن هذه الدراسات التي تؤكد رأي المؤلف سواء في مجال علم الأدب أم علم الاجتماع ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- علاقة الأدب بالمجتمع لإبراهيم محمد
- الأدب والمجتمع: دراسة في علم اجتماع الأدب، لحسين عبد الحميد أحمد رشوان
- التحليل الاجتماعي للأدب، السيد ياسين
- الأدب والمجتمع لمحمد ساري

ثانيا - موقفه من اختلاف وجهات النظر حول الصّناعة اللفظية والتصّنع البديعي:

إنّ التصّنع البديعي شأنه شأن أي ظاهرة لغوية أو أدبية وُجدت في اللغة العربية فعرفت عدّة اتّجاهات ومواقف في الرأي،[37] والصّنعة البديعية من منظور " أحمد فوزي الهيب" أمر بديهي أن تتّخذ موقفين، وأن يكون لها أنصار وخصوم ، ولكل منهما مبرراته:[38]

إذ **الأنصار**: نظروا إلى الأدب بمنظار الحياة الجديدة التي استغرقتهم ألوانها الكثيرة وزخرفها واشتباك تيارات الثقافة فيها، وكذا تنوع المعارف، ما حمّلهم كل هذا في معاني الشعر وألفاظه، حيث حملوا شعرهم تبعة التعبير عن هذا كله في معانيه وألفاظه.

بمعنى أخر: شعر شعراء العصر المملوكي مصطبغ بما أملته عليهم حياة العصر وظروفه إذ لا يمكن الخروج عن نطاق هذه الحدود المرسومة.

أما **الخصوم**: وعلى رأسهم الآمدي، فقد أدركوا بأنّ الشعر العربي لا بدّ له من مقومات ، والمتمثلة في صفاء الفطرة في التعبير، وقرب المأخذ من التصوير

والاقتصاد فيه، وانطباق الصفة على الموصوف، وعدم الإمعان في تجاوز الحسّ إلى المجردات الغامضة، ووزن الأشياء في إدراك معانيها وذوق صياغتها بميزانها الذي كان العرب يزنون به.

ثالثا- موقفه من المؤثرات المحفزة على تطورظاهرة التصّنع البديعي:

يذهب " أحمد فوزي الهيب" في رأيه إلى القول بأنّ وجود التصّنع البديعي في العصر المملوكي ليس وليد الصُدفة أو محض الإرادة، بل هو وليد مؤثرات عامة وخاصة أوجبتها ظروف العصر، فشجّعت وأسهمت في دفع النّاس في ذلك العصر نحو البديع والمغالاة فيه، وأهم تلك المؤثرات ما يلي:[39]

- **المقامات**: إذ غدت مقامات الحريري ركيزة أساسية في صناعة البديع والغلو في التصّنع البديعي
- **دور أهل العصر المملوكي** - هم أنفسهم- :، حيث عنوا بجميع آدابهم شعرا ونثرا في دواوين وكتب بلغت الألوف، ومجاراة وتسابقا مع كبار شعراء العربية من الأسلاف في الإبداع.
- **النقد**: حيث اتّسم نقدهم بالشكلية والاهتمام بمظاهر النظم وثوبه الخارجي والسطحية، والانسياق نحو اللفظية دون المعاني.

فهذه العوامل والمؤثرات مجتمعة – عنده – أسهمت إلى حد كبير في بلورة التصّنع البديعي والتفنن فيه ، على نحو ما سيتم ذكره في العنصر اللاحق من هذا المقال.

رابعا - موقفه من الأدباء والبلاغيين والنقاد :

تعددت أسباب ودوافع الإسراف في التصّنع البديعي حسب " أحمد فوزي الهيب"، فجعلته في تكاثر واستمرارية دائمة، ومن هذه الأسباب ما للأدباء والبلاغيين والنقاد من دور في تطور هذه الظاهرة.

فبالنسبة **للأدباء والشعراء** فقد كان لهم أيّما دور في المغالاة في التصّنع والتسبب في ظهوره بقوّة، وخير مثال على ذلك ما فعله المعري في تصريح له في لزومياته وظهر جليا في شعره حين قال:

وإنّي وإن كنت الأخير زمانه* لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

أي إنّه لم يسلك طريق المعاني، بل سلك طريقا أخر وهو الألفاظ.

ومن ثمّة، اتّجه الشعر اتّجاها مغايرا مذ كان وسيلة إلى أن أصبح غاية في حد ذاته مبدؤها التّحدي الصارخ، حيث غدا الشعر صناعة لفظية بعدما كان قريحة فطرية. و بالتالي، تصّبغ بكل ألوان التجميل الشعري والتصّنع اللفظي إفراطا وكلفا أبعده عن الوسيلة وخصّصه لشيء واحد وهي **الغاية.**[40]

أضف إلى ذلك مقامات الحريري، التي أضحت هي الأخرى نموذجا يُحتذى به في التصّنع، حيث جيء فيها بعجيب الصّنعة اللفظية واللّعب بالألفاظ ما جعله متفننا في عصره وفي العصور التي تلحقه. وهو الأمر الذي جعل الكثير من الشعراء والكتّاب يزدادون شغفا بالتصّنع احتذاء به من الفاطميين والأيوبيين ثم المماليك الروح التي كانت سائدة آنذاك.[41]

بمعنى أخر: يرى المؤلف بأنّ ظروف العصر المملوكي وما وصل إليه العالم العربي الإسلامي من ترف ماديٍّ وعقليٍّ في آخر القرن الرابع وما بعده، يُحتم ظهوره في الأدب عامة وفي المقاييس الذوقية والجماليّة في الفنّ والنقد ، ما صيّره روحا للعصر.

أمّا فيما يخصّ **النقد**، فيرى" أحمد فوزي الهيب" أنّ لهذا الأخير نصيب وافر فيما آل إليه الشعر في العصر المملوكي والمغالاة فيه، كونه قد اعتمد على مُثُل أدبيّة عُليا، أكبّ عليها شعراء العصر وأدباؤه عامة دراسة وحفظا وتقليدا أو تحديا. حيث تميز بالشكليّة والاهتمام بالظاهر، وعدم الاهتمام بالمضمون، والغوص في أعماق الشعر وتقويمه. فكانت نظرته للشعر آنذاك نظرة جزئية لا

كُليّة مقتصرة على الألفاظ مهملة التجربة الكليّة أو الجوّ الشعوري للقصيدة كاملة.

وعليه، فإنّ النقد–عنده- وقف من المعاني موقفا دفع بالشعراء والأدباء إلى التركيز على ناحية الشكل دون المعنى، ما أثّر في الغلو في التصّنع.

وهذا الموقف حسب رأيه تجلى في أمور كثيرة أبرزها:[42]

- فكرة وضوح المعاني وسهولة الوصول إليها وضعف أهميّتها.
- فكرة تناهي المعاني ونفاذها بعدما سبق إليها الأقدمون إليها، حيث اعتقد الكثير من النقاد والشعراء بأنّ السابقين قد أحاطوا بمعاني الشعر كلّها ولم يتركوا لهم بقية تُذكر.

وفي نظره ، فإنّ هاتين الفكرتين قد تمّ فهمهما خطأً، ممّا أسهم في جريان جمود في الإبداع ، بدأ منذ القرن الرابع هجري، وأخذ يزداد مع الزمان إلى أن استقرت في عقول النّاس فكرة مفادها أن ميدان المعاني لا جديد فيه ، وإنّما الجديد في الألفاظ . وما عليهم سوى التقليد والأخذ من الأسلاف ، أو من بعضهم البعض ، ما خلق مشكلة أخرى وهي" **مشكلة السرقات الأدبية**".[43]

خامسا: موقفه من شعر العصر المملوكي:

يرى أحمد " فوزي الهيب" أنّ ما وصل إليه الفنّ الثالث من فنون البلاغة – البديع- من تصّنع معقّد وتكلف وقوالب لفظيّة جامدة ، صيّرت الشعر في العصر المملوكي إلى مهارة خاضعة لعمل فكري واعٍ من قبل شعراء ذلك العصر، وأنّ هذه المهارة قد أبعدته عن ماهيته ووظيفته في التعبير عن المشاعر الوجدانية الصافيّة والتجارب الصّادقة. إذ صارت غاية أصحابه مجرد نكت بلاغية لم يصل إليها أحد من قبل ، خصوصا مع اقتحام فكرة راسخة في

أذهانهم وهي أنّ المعاني قد تمّ السبق إليها ولم يعد في الوُسع الإبداع فيها. مُشيرًا إلى أنّه مع وجود الصّنعة البديعية عند بعض الشعراء، هذا لا ينفي وجود عناصر فنية أخرى، تشترك معها في إقامة بناء كامل قائم على الجهد والإبداع.[44] كما أنّه بوجود الإلحاح الشديد على الصّنعة بهذا الشكل المبالغ فيه، جعل الشعر نتاج جهد عقلي صادر عن تفكيرٍ واعٍ، وهذا التفكير جاء استجابة لدواعي العصر ورغبة في الإمتاع والكسب، وكذا من أجل الذوق العام.[45]

وبناء على ذلك، فإنّه من الظُلم عدم النظر إلى شعر العصر المملوكي من منظار عصرنا الحديث وفهم النقاد فيه للتجديد والابتكار فقط. لأنّ الحكم عليهم بهذه الطريقة يعد حُكما جائرا ، كون الشعراء لما عمدوا إلى الصّنعة لم يكن من محض إرادتهم واختيارهم، بل حتمت ظروف العصر عليهم ذلك. وهذه الظروف في نظره بمثابة علل وحجج للاقتناع بفكرة نقدية أراد مؤلف الكتاب إيصالها، وهي ضرورة النظر إلى العصر المملوكي من زاويتين اثنتين هما:

- من منظار عصرنا الحالي، وهي نظرة تخلق موضوعية في النقد والحُكم على العصر
- من منظار العصر المملوكي ذاته ومؤثراته التي أوجدت الشعر بتلك الطريقة في التصّنع، وهذا المنظار هو ما سيعمل على فهم سياق إنتاج الشعر ، ومن ثمّة الإنصاف والعدل في أي حُكم قد يُتّخذ إزاءه.

وحسب رأيه الشخصي، فإنّ هاتين الزاويتين في النظر إلى شعر العصر المملوكي والحُكم عليه، ستُخففان من حدّة النقد الجائر بحقّ شعرائه. مشيرا إلى أن ما أنتج من أدب كان تأثرا بروحه، وهذا سببٌ كافٍ لاتّخاذه ذريعة نقديّة عادلة ومُنصفة.[46]

سادسا: موقفه من شعر ابن الوردي وصفي الدين الحلي:

اختار " أحمد فوزي الهيب" لتمثيل العصر المملوكي شاعرين معاصرين هما ابن الوردي وصفي الدين الحلي الذين اتّسم شعرهما بالإسراف والغلو في التصّنع بكل أشكاله وألوانه وفنونه. فكانت دراسته لهما قد أخذت حصة الأسد من الكتاب كونها دراسة تطبيقية قاصدا بها إعطاء صورة عامة ومكتملة عن الشعر في ذلك العصر من حيث تميزه بالإسراف المُفرط في التصّنع بكل أشكاله بمهارة وإبداع كبيرين.

وسنشير إلى موقفه من شعريهما بالفصل بينهما منهجيا،حتى نصل في الأخير إلى موقفه النهائي.

أ- موقفه من التصّنع في ديوان ابن الوردي:

إنّ اختيار ابن الوردي دون غيره من شعراء عصره لم يكن اختيارا عشوائيا وإنّما له أساب متعددة راجعة إلى : المولد والنشأة والتكوين الفكري، وكثرة انتاجاته الأدبية الشعرية منها والنثرية، وكذا شهرته الواسعة في الشام ومصر.

وقد أظهرت الدراسة المتعلقة بديوانه مدى تفنّنه ومهارته في الإبداع جهة التصّنع بمختلف الألوان البديعية المعروفة في أوساط البلاغيين واستقرت في الأذهان، ومجمل ما توصل إليه المؤلف بخصوص شعر ابن الوردي ما يلي:[47]

- وجود البديع بنوعيه المعنوي واللفظي

- احتلال البديع المعنوي نسبة كبيرة في الديوان ، حيث كان له الحظ الوفير في التفنن، وكان متمثلا في: الطباق – المقابلة – التّورية – التضمين – الاقتباس – حسن التعليل – تجاهل العارف

- احتلال البديع اللفظي المرتبة الثانية عددا بعد المعنوي، وتجلى ذلك في: الجناس – الترصيع – التعديد و التمسيط

وتجدر الإشارة إلى أنّ المؤلف في عرضه لها اتّخذ منهجية التدرج في ذكرها وعرضها بدءً من الأكثر ذكرا عددا إلى الأقل عددا سواء في البديع المعنوي أم اللفظي، مشيرا إلى مسائل عدّة تؤكد فكرة الغلو في التصّنع وهي:

– التنويع في المحسن الواحد سواء المعنوي منه أم اللفظي، بذكر جميع أشكاله وألوانه، فمثلا الطباق ذُكر الايجابي والسلبي والاسمي والفعلي من حيث التضاد معنى، والمُقابلة جاء مذكورة مفردة وثنائية وثلاثية ورباعية، وكذلك الجناس ذُكر بمختلف أشكاله : التام والناقص والمقلوب وغيرها.....

– امتزاج المحسنات البديعية سواء المعنوية منها أم اللفظية بألوان بديعية أخرى زادت من شعره حلّة أظهرت مدى براعته

– تميز التصّنع عنده بإيراد جميع الموضوعات التي تخطر بالبال والتصّنع فيها ظهر ذلك حين تصّنع بالتوريّة في الأدوات الحضارية الخاصّة بالمطبخ ، والحياكة ومراحل العُمر والبداوة وأسماء البلدان والأماكن والأمثال العربية

– تنوع التضمين عنده ، والذي شمل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والمنظومات النحوية.

– تميز شعره بوجود براعة في التفنن ، إذ لم يُكتف بذكر المحسنات المعنوية واللفظية ومزجها بغيرها من الفنون البديعية . بل فاقت براعته ذلك بإيراد محسنات مُشتركة بين المعنوية واللفظية محاولة منه في الغلو بتصّنع في هذا الفنّ

– عنايته ببراعة الاستهلال أو حسن الابتداء وحُسن الختام عناية كُبرى.

– تميز شعره بالإضافة إلى كل هذا بالحشد البديعي والذي كان متنوعا في ديوانه

- تميز شعره بوجود محسنات إضافية مبتكرة هدف من خلالها ابن الوردي إلى كسر الرقم القياسي في التصّنع من حيث العدد.
- مجيءالتصّنع عندهفي أغراض شعرية مختلفة منها: الغزل – الفخر – المدح وغيرها من الأغراض
- تأثره بغيره من الشعراء المتصّنعين أمثال أبو العلاء المعري.

ب- موقفه من شعر صفي الدين الحلي:تمّ اختياره كذلك لأسباب عدّة أهمهما:

- تأثره الشديد بأبي العلاء المعري تأثرا كبيرا ظهر ذلك في كتابه(**درر النحور في امتداح الملك المنصور**)، حيث لمح بينهما تقاطعات وتشابهات واختلافات. حيث يعتقد الهيب أنّ هناك صلة بين درر النحور ولزوميات المعري، والتي تجلت في قصائده شكلا ومضمونا. و أنّ انطلاقاته من لزوميات المعري جعلته يضفي على ديوانه زيادة ونقصان.، مُلتزما فيه بالتصريع، وبالمقدمة الغزلية أو الخمرية.

أي أن هناك تأثيرا وتأثرا بالمعري ، جعل شعره يتّسم بنوعين من التصّنع هما:

- الأول: تصّنع خاص اختصّ به الحلي، وهو تصنع منهجي أو هندسي كلي انتظم الدرر به من أوله إلى أخره.
- الثاني: تضمن تصّنعا عاما مشتركا بين صفي الدين الحلي وغيره من معاصريه وسابقيهم ولاحقيهم ممّن ساروا في شعب التصّنع.

- نشأته وظروفها، وهي نشأة قبلية عربية فصيحة

- تميّزه بشعر المديح، من ذلك مديحه للملك المنصور الأرتقي، وكان ذلك على نوعين: مدائح مجملة وأخرى مفصّلة

ومن ثمّة، تميز شعره بما يلي:

- جعل الجناس والطباق يحظيان بنصيب الأسد، حيث أتى بجميع أضرب الجناس و أنواعها ، جامعا في البيت الواحد أكثر من جناس. كما عمد إلى الجمع بين الجناس وغيره من المحسنات في البيت الواحد رغبة منه في مزيد من التصّنع
- التنويع في الطباق بأنواعه إيجابا وسلبا، مع حرصه الشديد على الجمع بين الطباق وغيره من الفنون البديعية الأخرى
- حرصه كذلك على الجمع بين الجناس و الطباق
- إكثاره من المقابلة والاقتباس لإظهار ثقافته القرآنية والحديثية
- حرصه على المناسبة اللفظية لإكساب البيت موسيقى ثرية
- جمعه بين المناسبة اللفظية وغيرها كمراعاة النظير –التضمين– رد الإعجاز على الصدور
- عنايته بالتوجيه والإغراق والمماثلة والترصيع والتسميط والتذييل وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتورية وحسن التعليل، والجمع مع التقسيم والتسجيع، وإرسال المُثُل والاستثناء والاستدراك

وهذا كلّه أثبت مدى مقدرته وبراعته في التفّنن والتصّنع.[48]

ج- موقفه النهائي من ظاهرة التصّنع:

بعد هذا العرض التاريخي لمسيرة ظاهرة التصّنع البديعي التي اطلعنا عليها الباحث من الجاهلية إلى العصر المملوكي، وتمثيله في الدراسة التطبيقية بشاعرين اتّسما بالغلوّ في التصّنع، تجلى له في الأخير بأنّ التصّنع ظاهرة راسخة في القدم، بدأت تنمو وتزدهر شيئا فشيئا مع مرور الزمن، إلى أن صارت على ما هي عليه في زمن المماليك. أي إنّها بدأت بسيطة، ثم راحت تتجه نحو النمو

بشكل متدرج من البسيط إلى المعقد إلى الأكثر تعقيدا، وأن الشعراء لم يختاروها اختيارا، بل ظروف العصر من أجواء سياسية واجتماعية وفكرية هي التي أسهمت في تطورها، كون العصر العباسي كان يدعو إلى التزيين والتنميق في الألفاظ.

وهذه الفكرة قد تأكدت له في دراسته التطبيقية في شعر كل من ابن الوردي وصفي الدين الحلي، حيث تشكلت لديه صورة عنهما مشفوعة بتعليل لكل منهما، والتي يمكن لنا عرضها في النقاط الأتي ذكرها:

- لم يكن ابن الوردي في تصّنعه وغلوه فيه بدعا بين شعراء عصره، وإنّما كان صورة صادقة عن عصره وقد مثّله خير تمثيل[49]
- أما صفي الدين الحلي، فقد كان حريصا على تزيين شعره شكلا ومضمون، فكان قُطبا من أقطاب مذهب الجناس والطباق في عصره.[50]

وهذا عنده أمر طبيعي لغلبة روح البديع في ذلك العصر. وعليه،فإنّ الشاعرين في نظره قد بلغا من الاحترافية والتفنن في التصّنع درجة شبيهة بالصانع الماهر الحاذق المُحترف في حرفته وصناعته، وهو الأمر الذي جعله يلخص لنا هذه الظاهرة بالقول إنها تميزت بشكلين اثنين:

الأول: تصّنع جزئي عني عناية كُبرى بجميع أنواع التصّنع التي أوصلها النقاد والبلاغيون إلى ما يقارب خمسين ومائة نوعا.

الثاني: تصّنع كلّي معماري فنِّي هندسي وهو فريد غير مسبوق.[51]

لذا، فإنّنا نجده قد ألّح إلحاحا شديدا على ضرورة النظر إلى شعر العصر المملوكي من منظار العصر الحالي ومن منظار العصر نفسه، حتى يُعطى لأدب ذلك العصر قيمته الفنية العادلة.

- **خاتمة:**

مكّنتنا دراستنا لموضوع التصّنع البديعي عامة والتصّنع البديعي في العصر المملوكي من خلال كتاب (التصنع وروح العصر)، لأحد قامات الأدب العربي أحمد فوزي الهيب – رحمه الله- باستطلاع آرائه وخلاصة دراسته للموضوع إلى الخلوص إلى جملة من النتائج، نحصرها في النقاط الآتية:

- أحمد فوزي الهيب ذو ثقافة علمية واسعة واطلاع كبير بالأدب والبلاغة والنقد، هذا الثلوث الذي لا يمكن للواحد منهما أن يستقل عن الأخر حتى وإن استقل منهجيا، فإنه يكمل بعضه بعضا، كما له ثقافة شعرية بشكل خاص كونه شاعرا ذواقة.

- اطلاعه الواسع جعله ذو بصيرة فذّة، تنم عن عمق في الدراسة والتفكير وعدم الاكتفاء بالسطحيات ، بل التعمق والتركيز بحيثيات الأدباء والشعراء أثناء انتاجاتهم الأدبية.

- اتّسام منهجه في الطرح بالفكر العقلاني والتروي في التحليل والاستنباط، بتتّبع الظاهرة ومسارها عبر التاريخ، للوصول بها نحو حكم عادل ومنصف بشأنها.

- ومن ثمّة، يمكن القول بأنّ موقف " أحمد فوزي الهيب" بخصوص ظاهرة التصّنع البديعي تتجلى في مواقف عدّة تحيط بالظاهرة نفسها ومسارها التاريخي ، وبالشعراء أنفسهم وأسباب اللجوء إليها وكذا طبيعة العصر والروح السائدة فيه. وهذا كلّه سمح له باتّخاذ موقف نهائي عادل ومنصف اتّجاه الظاهرة وهو عكس ما حصل لغيره من الدارسين والنقاد المهتمين بمجريات العصر المملوكي وأدبه .

فدعا من خلال كتابه إلى ضرورة إنصاف هذا العصر وإعطائه حقّ جهة الأحكام المتّخذة حوله جورا دون الأخذ بعين الاعتبار العصر والروح السائدة فيه، إذ ما أُنتج ليس سوى استجابة لروح ذلك العصر.

وفي الأخير نأمل أن تلقى دعوته هذه اهتماما واستجابة من قبل الدارسين والنقاد لإعادة النظر حول الصورة والفهم الخاطئ اتّجاه العصر المملوكي وما أنتج فيه من شعر.

الإحالات:

- رابطة أدباء الشام: الأديب الداعية أحمد فوزي الهيب، بقلم: عمر العبسو، تاريخ الدخول: 08-12-2021[1]، الساعة:10:00

[2]- صفحة الغلاف الخارجي من كتاب التصنع وروح العصر المملوكي للدكتور أحمد فوزي الهيب.

- للمزيد من التفاصيل ينظر: علي أبو زيد، البديعيات في الأدب العربي: نشأتها – تطورها- أثرها، عالم الكتب د.ت ، د.ط، ص:5 وما بعدها[3]

- ينظر شفيق عبد الرزاق أبو سعدة، شعر الخصاصة في العصر المملوكي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط1، 1991، مقدمة المؤلف[4]

[5]- لتفاصيل أوفى ينظر: محمد سلام زغلول، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، مصر، د.ت، د.ط

[6] - أحمد فوزي الهيب، التصنع وروح العصر المملوكي، دراسة وتقديم: عبد الكريم الأشتر، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2004،ص: 7 بتصرف

[7]- نفسه،ص: 117 -118

[8]- نفسه،ص:9

[9]- ابن منظور جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، طبعة جديدة محققة ومشكولة، القاهرة،د.ت، مج1، ج4، ص:229-230

- للتوسع أكثر: ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول ،ط8 والعصر العباسي الثاني،ط2، دار المعارف[10]

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،مكتبةالخانجي، القاهرة، ص: 55- 56[11]

[12]- ابن المعتز أبو العباس عبد الله، كتاب البديع، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، ويليه: العلم الخفّاق من علم الاشتقاق، تأليف: محمد صديق حسن خان، ضبط وتعليق: عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1433ه/2012،ص:5

[13]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها

[14]- لتفاصيل أوفى حول هذه الأبواب ينظر المصدر نفسه، ص: 15 -36 – 48 -62 - 69

[15] - الشحات محمد أبو ستيت، دراسات منهجية في علم البديع،ط1414،1ه/1994م،ص: 13

[16]- لتفاصيل أوفى حول هذه المحسنات يرجى العودة إلى قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 73 وما بعدها[16]

[17]- للتوسع في هذه الفنون ينظر: العسكري، الصناعتين،ص: 266 وما بعدها.

[18]- ينظر ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده،ص: 382 وما بعدها

[19]- للتوسع أكثر يرجى العودة إلى عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربي: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ط،د.ت، ص: 7 وما بعدها.

- للتوسع أكثر ينظر: منير سلطان، البديع: تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1986،ص:11

[20]وما بعدها

- ينظر: جميل الحمداوي، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة، الهيئة المصرية العامة

[21]للكتاب،1998،ص: 13 وما بعدها

[22]- ينظر السكّاكي أبو يعقوب يوسف بن محمد، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420ه/ 2000،ص: 532

- القزويني جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت ،

[23]لبنان، د.ط، د.ت،ص:348

[24]- الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، مراجعة: محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث القاهرة، 1430ه/2009،ص:658

- الفيّومي أحمد بن محمد، المصباح المنير في الشرح الكبير للرافعي، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، دار

[25]المعارف ، القاهرة، ط2، د.ت، ص: 348

[26] - الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، 1384ه/1965،ص:131 -132

[27] - ينظر ابن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1426ه/2005،ص: 11 وما بعدها

[28] - ينظر العسكري، الصناعتين، ص: 6 وما بعدها

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425ه/2004،باب

[29]الصاد،ص:525-526

[30]- معجم المعاني الجامع، معجم إلكتروني: عربي - عربي

[31]- الجوهري، الصحاح،ص:659

[32]- للتوسع حول القضية ينظر: ابن رشيق القيرواني، العُمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وتعليق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط1، 1420ه/200،ص: 208 وما بعدها

[33]- لمزيد من التوسع حول قضية الطبع والصنعة عند النقاد العرب القدامى ، ينظر: بوعامر بوعلام، جدل الطبع والصنعة في النقد العربي القديم، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج7، ع2، 2014

[34]- نفسه ،ص:11

[35]- نفسه،ص:34

[36] - نفسه ، ص: 34

[37] - من بين الظواهر اللغوية التي عرفت اختلافا في الرأي نذكر على سبيل المثال لا الحصر : الترادف – التضاد – المشترك اللفظي – السرقات الأدبيةالخ.

[38] - أحمد فوزي الهيب، التصّنع وروح العصر المملوكي،ص: 14 و15

[39] - نفسه، ص: 15 – 16 - بتصرف

[40] - نفسه،ص: 21

[41] - نفسه،ص: 22 -23

[42] - نفسه،ص: 32

[43] - نفسه،ص:32

[44] - نفسه،ص:32

[45] - نفسه ،ص:33

[46] - نفسه،ص:34

[47] - لتفاصيل أوفى حول الدراسة ينظر المصدر نفسه، ص: من 36 85

[48] - لتفاصيل أوفى حول الشاعر ينظر المصدر نفسه،ص: من 86 إلى 115

[49] - نفسه،ص:85

[50] - نفسه،ص: 113 -114

- ينظر المصدر نفسه،ص:117-118.

المراجع:

- أحمد فوزي الهيب ، التصّنع وروح العصر المملوكي، دراسة وتقديم: عبد الكريم الأشتر، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2004

- بسيوني عبد الفتاح، علم البديع: دراسة تاريخية وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة،ط2 ، 1418ه/1995

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،مكتبةالخانجي، القاهرة

- الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، 1384ه/1965

- الجرجاني الشريف ، معجم التعريفات، تحقيق: محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، د.ت، د.ط

- الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد)، تاج اللغة وصحاح العربية، مراجعة: محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث القاهرة، 1430ه/2009

- الحمداوي جميل، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1998
- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة:ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ،ضبط: خليل شحادة، مراجعة:سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان،1431ه/2001
- السكّاكي(أبو يعقوب يوسف بن محمد)، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420ه/ 2000
- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان،ط1، 1402ه/1982
- شفيق عبد الرزاق(أبو سعدة) ، شعر الخصّاصة في العصر المملوكي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط1، 1991.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول ،ط8 والعصر العباسي الثاني،ط2، دار المعارف
- ابن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1426ه/2005
- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربي: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ط،د.ت
- العسكري (أبو هلال)، كتاب الصناعتين: الكتّابة والشّعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،ط1، 1371ه/1952
- علي أبو زيد، البديعيات في الأدب العربي: نشأتها – تطورها- أثرها، عالم الكتب د.ت ، د.ط.
- الفيّومي (أحمد بن محمد)، المصباح المنير في الشرح الكبير للرافعي، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف ، القاهرة، ط2، د.ت
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
- القزويني (جلال الدين)، الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، د.ط، د.ت
- محمد سلام زغلول، الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، مصر، د.ت، د.ط
- ابن المعتز (أبو العباس عبد الله)، كتاب البديع، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، ويليه: العلم الخفّاق من علم الاشتقاق، تأليف: محمد صديق حسن خان، ضبط وتعليق: عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1433ه/2012
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425ه/2004
- معجم المعاني الجامع، معجم إلكتروني: عربي - عربي
- ابن منظور (جمال الدين بن مكرم)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، طبعة جديدة محققة ومشكولة، القاهرة،د.ت
- منير سلطان، البديع: تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1986